خمسة واربعون عاما على رحيله

ناظم الغزالي.. صوت عراقي لن يتكرر

ماجد حبته

قبل خمسة وأربعين عاماً من اليوم، في (٢٣ . ١٠ . ١٩٦٣)، تحديدا في الساعة الثالثة ظهرا أو عصرا، كسرت إذاعة بغداد القاعدة، وقطعت إرسالها لتعلن الخبر الذي امتد تأثيره ليصيب العالم العربي كله بحزن بالغ: خبر وفاة ناظم الغزالي .كان قطع البث الإذاعي يلازمه دائما إعلان «البيان الأول» لأحد الانقلابات العسكرية، (ولم يكن قد مر سوى ٧ أشهر على انقلاب شباط الدموي!)، لكن هذه المرة اختلف الوضع واستمع من تعلقت آذانهم بجهاز الراديو إلى الخبر الذي أحدث انقلابا في نفوسهم، وأبكاهم طويلا. «مات ناظم الغزالي».

هكذا بثت الإذاعة خبر وفاة بلبل العراق وصانع أغنياته الذي استطاع بدراية وعلم وموهبة أن ينقل الغناء العراقي من محليته الضيقة إلى الآفاق العربية الواسعة، وما أن بثت الإذاعة الرسمية الخبر، حتى تدافع الملايين إلى الشوارع ليسيروا في الجنازة التي جابت شوارع بغداد، ونقلت شاشة التلفزيون العراقي وقائعها كاملة.

ثلاثة وأربعون عاماً مرت -إذن- على وفاة ناظم الغزالي، ورغم ذلك ما زال يغني بيننا، ولا نكون مبالغين لو قلنا بأن خلال تلك السنوات لم تخل سهرة أو مناسبة من حضوره، سواء بصوته المسجل أو بصوت مطرب يردد أغنياته، دافعا الأذن إلى استعادة ذلك الصوت الذي لن يتكرر.

مشروع الممثل في مشروع الطحين

لم يكن عمره قد تجاوز الثانية والأربعين، فهو المولود عام ١٩٢١، وبين عام المولد وعام الوفاة، رحلة من الكفاح الدافع للاحترام، والذي يجعلنا نأسف لاختطاف الموت لمن كان بمقدوره أن يضيف الكثير والكثير إلى الغناء العربي .

كانت حياة الغزالي القصيرة ممتلئة بالمآسي؛ فقد ولد يتيمًا، لأم ضريرة تسكن في غرفة متواضعة جدا مع شقيقتها في منطقة «الحيدرخانة»، ثم انتقلت بعد الولادة إلى منطقة أشد فقرًا، فكانت طفولته قلقة، غامضة، عاش فيها على الكفاف.

بمنتهى الصعوبة استطاع أن يكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة، في المدرسة المأمونية، وكان الفقر ملازمًا له، وزاد الفقر حدة بعد وفاة والدته، ورعاية خالته له، وهي التي كانت تستلم راتبا لا يتجاوز الدينار ونصف الدينار. وبعد تردد طويل التحق بمعهد الفنون الجميلة قسم المسرح، ليحتضنه فيه فنان العراق الكبير حقي الشبلي نجم المسرح وقتها، حين رأى فيه ممثلا واعدا يمتلك القدرة على أن يكون نجما مسرحيا، لكن الظروف المادية القاسية التي جعلته يتردد كثيرا في الالتحاق بالمعهد نجحت في إبعاده عنه، ليعمل مراقبا في مشروع الطحين بأمانة العاصمة!

كيف ميزه فقره عن زملائه؟

أبعدته الظروف عن المعهد، لكنها لم تمنعه من الاستمرار في قراءة كل ما تقع عليه يداه، والاستماع إلى أم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وأسمهان وليلى مراد ونجاة علي، وكانت أغنياتهم وقتها تملأ الأسماع في مناخ كان يدعو كلا منهم إلى الاجتهاد والإجادة، لإمتاع متذوقي الطرب، ولجعل ناظم يتعلق أكثر فأكثر بالغناء ويحفظ أغنياتهم عن ظهر قلب، ليكتشف ويكتشف المحيطون به أن هناك موهبة غنائية لن تكرر في حنجرة مراقب مشروع الطحين!!

هذه الفترة، أكسبته طموحا غير محدود وعنادا وإصرارا على إكمال الطريق الذي اختاره برغم الصعاب المالية والنفسية، التي واجهته، وجعلته حين يعود للمعهد يبذل قصارى جهده ليحصل على أعلى الدرجات.

أما قراءاته فجعلته يمتاز عن زملائه بثقافته، تلك الثقافة التي ظهرت عام ١٩٥٢ حين بدأ ينشر سلسلة من المقالات في مجلة «النديم» تحت عنوان «أشهر المغنين العرب»، وظهرت أيضا في كتابه «طبقات العازفين والموسيقيين من سنة ١٩٠٠ . ١٩٦٢»، كما ميزه حفظه السريع وتقليده كل الأصوات والشخصيات، وجعلته طوال حياته حتى في أحلك الظروف لا يتخلى عن بديهته الحاضرة ونكتته السريعة، وأناقته الشديدة حتى في الأيام التي كان يعاني فيها من الفقر المدقع.

«هلا هلا».. الممثل مطرباً

عاد ناظم الغزالي إلى معهد الفنون الجميلة لإكمال دراسته، ليأخذ حقي الشبلي بيده ثانية ويضمه إلى فرقة «الزبانية» ويشركه في مسرحية «مجنون ليلى» لأمير الشعراء أحمد شوقي، ولحّن له فيها أول أغنية شدا بها صوته وسمعها جمهور عريض، أغنية «هلا هلا» التي دخل بها إلى الإذاعة، والتي حول على إثرها ناظم اتجاهه، تاركا التمثيل المسرحي ليتفرغ للغناء، وسط دهشة المحيطين به الذين لم يروا ما يبرر هذا القرار، خاصة أن ناظم كان يغني في أدواره المسرحية، إلا أن وجهة نظره كانت أنه لكي يثبت وجوده كمطرب فإنه لا بد أن يتفرغ تماما للغناء.

وبين عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨ انضم إلى فرقة الموشحات التي كان يديرها ويشرف عليها الموسيقار الشيخ علي الدرويش والتي كان بها عدد كبير من المطربات والمطربين.

في فلسطين مع جنود العراق

لم ينته عام ١٩٤٨ حتى سافر ناظم للمرة الأولى خارج العراق، وكانت فلسطين هي أولى محطاته خارج العراق؛ إذ ذهب مع الوفد الفني للترفيه عن الجيش العراقي المتواجد في الأرض العربية المحتلة للدفاع عنها ضد العدو الصهيوني.

ومنذ بداية الخمسينيات بدأت أغنيات الغزالي تعبر الحدود، لتصبح مثالا للغناء العراقي الذي لم نجد ما يمثله إلى الآن .

وبداية الخمسينيات هي الفترة التي شهدت تطورا وربما انقلابا ملحوظا في غالبية مقاييس الغناء في العراق ومواصفاته، وبدأت بوادر الأغنية المتكاملة تظهر مع أغنيات ناظم التي نفاجأ اليوم حين نسمعها بوجود لوازم موسيقية ضمن توزيع موسيقي تعدد فيه الآلات الغربية والشرقية.

عبد الوهاب ومشروع لم يتم

«طالعة من بيت أبوها»، و«ماريده الغلوبي»، و«أحبك»، و«فوق النخل فوق»، و«يم العيون السود».. تحضرني تلك الأغنيات الآن، وكلها كتبها جبوري النجار، ولحنها ناظم نعيم، ووزعها جميل بشير، والتي يرجع فضل انتشارها في العالم العربي كله برغم خروجها من بيئة ذات طبيعة شديدة الخصوصية، إلى أن ناظم لم يؤدها بالشكل التقليدي، وإنما خرج فيها على الأصول المتبعة ليجعل منه أغنية عذبة سهلة التداول والحفظ.

أما الفضل في حفظها إلى الآن فيعود إلى شركة «جقماقجي» التي بدأت منذ منتصف خمسينيات القرن الماضي في تسجيل أسطوانات كبار المطربين والمطربات العراقيين، وطبعا كان ناظم منهم إن لم يكن أولهم؛ إذ كان وقتها المطرب الأكثر شهرة في سماء العراق، وكان بريق نجمه يمتد ليشمل العالم العربي كله؛ الأمر الذي دفع محمد عبد الوهاب أن يطلب من شركة «كايروفون» أن تنتج لناظم عددا من الأسطوانات يضع بنفسه ألحانها، وكاد المشروع الكبير يتم لو لم يفسده الموت!

من الدواوين إلى الألسنة

أنشد ناظم التراث العراقي فحبب للعراقيين حفظ تراثهم، وجذب الأذان العربية إلى هذا التراث، وغنى أروع القصائد متقنا اللغة العربية الفصحى وناطقا لحروفها من دون خطأ يذكر، أو لا يذكر، فتمكن من أن يصل إلى كل مستمع عربي بسهولة، وقد سمعوه يغني أروع القصائد العربية التي تدل على معرفة واطلاع واسعين.غنى لأبي فراس الحمداني: «أقول وقد ناحت بقربي حمامة»، ولأحمد شوقي: «شيّعت أحلامي بقلب باك» وللبهاء زهير «يا من لعبت به شمول»، ولإيليا أبي ماضي: «أي شيء في العيد أهدي إليك يا ملاكي»، وللمتنبي: «يا أعدل الناس»، وللعباس بن الأحنف «يا أيها الرجل المعذب نفسه»، ولغيرهم من كبار شعراء العربية، ولولا وفاته المبكرة ربما لم يكن ليترك كلمة في عيون تراث الشعر العربي إلا وغناها وأمتعنا بها.

هكذا أخرج القصائد من دواوينها وجعلها تجري على لسان أبسط الناس الذين أحبوا كلماتها، وأحبوا أكثر الصوت الذي نقلها إلى أذنهم بنبرة الشجن الشائعة في الأصوات العراقية، وإن زاد عليها نبرة أكثر حزنًا بأدائه الدرامي الذي اختلطت فيها الحياة القاسية التي عاشها، وما درسه بمعهد الفنون الجميلة.

صوت باتساع ١٤ درجة

ثلاثة وأربعون عاماً مرت وما زال ناظم هو صاحب الصوت الأكثر صفاء ووحدة في العالم العربي، وهو الصوت الذي صنفه النقاد ضمن الأصوات الرجالية الحادة «التينور»، وهو الصوت الرجالي الأول في التصنيفات الغربية.

بين أوكتاف ونصف وأوكتافين، يتراوح مجاله الصوتي، والأوكتاف أو «الديوان» بالعربية يتضمن ثماني نوتات أو درجات، وتنحصر حلاوة الأماكن في صوت الغزالي بين النصف الأول والثاني من الأوكتافين، بهذا الشكل تكون مساحة صوت ناظم قد زادت على أربع عشرة درجة في السلم الموسيقي، ومع انفتاح حنجرته كانت قدرته غير العادية على إجادة الموال وتوصيل النوتات بوضوح، بجوابه المتين وقراره الجيد في مختلف ألوان المقامات وأنواعها، وإضافة إلى ذلك كله فقد ساعدته دراسته للتمثيل على إجادة فن الشهيق والزفير في الأوقات الملائمة.هل أحس بدنو أجله؟ما حدث في عام الوفاة يؤكد أنه كان يهيئ نفسه للرحيل، فقبل وفاته سافر إلى بيروت وأقام فيها ٣٥ حفلاً، وسجل العديد من الأغاني للتلفزيون اللبناني، ثم إلى الكويت، وسجل قرابة عشرين حفلة بين التلفزيون والحفلات الرسمية. وفي العام نفسه اجتهد وبذل جهدا كبيرا ليتمكن بسرعة أن ينتهي من تصوير دوره في فيلم «مرحبا أيها الحب» مع المطربة نجاح سلام، وغنى فيه أغنية «يا أم العيون السود».

هل كان يحس بدنو أجله، فأصر على أن يقطع جولاته في البلاد العربية ويعود إلى بلده، إلى العراق التي لم يمض على عودته إليه أقل من يومين لتخرج روحه بعدها إلى بارئها.

خمسة وأربعون عاماً بالتمام والكمال مرت لكنها لم تزد ناظم الغزالي إلا شهرة، ولم تزد الآذان إلا تعلقاً به.

نزيهة سليم كما عرفتها

خالص عزمي

أربعة اولاد وبنت واحدة؛ جميعهم يتشابهون في السحنة فلا تكاد تفرق واحدا عن الآخر في المظهر الخارجي؛ شعورهم سوداء مجعدة ملتفة على بعضها كأنها حزمة متشابكة؛ وجبهاتهم عالية الوسط منبسطة على الجانبين؛ اما أنوفهم فضخامتها مشهود بها؛ بل هي نسخة طبق الاصل مما كان يتباهى به والدهم بقوله (شم ألانوف). أما اصواتهم المتدهجة المتلعثمة احيانا و الضاحكة كثيرا فهي تمنح المصغين رقة وتقربا.كان بيت الفنان الحاج(محمد سليم علي الموصلي)؛ يعج بالحركة؛ لما عرف به رب الاسرة من كرم واريحية؛.. حدثني سعاد الرسام والمصمم البارع عن اسرته مرة فقال: (لايكاد المرء يدخل بيتنا القديم الا ويرى بعض الفنانين من زملاء الوالد في الجيش؛ كمحمد صالح زكي وعاصم عبد الحافظ وعبد القادر رسام؛ او حتى من الجيل التالي لهم كفتحي صفوت وناصر عوني، بل ولوالدي علاقات متينة ببعض كبار قراء التراتيل الدينية و المقامات العراقية؛ ولطالما رحبنا بهم في بيتنا). فتحت نزيهة عينيها على دنيا زاخرة بالحيوية والتعاطف الاسري المؤطرة بالوان من العشق الحقيقي للفنون؛ وحينما أختارت الاسرة بيتا حديثا في محلة الوزيرية عاشت نزيهة واشقاؤها بذات العمق من المحبة والتواصل والألفة. في بداية الاربعينات؛ اصبح ذلك البيت أكثر تطورا مع صيغ الحياة العصرية؛ حيث حل الراديو الخشبي من نوع (ويستنجهاوس)على الاسرة كغيث ربيعي منعش؛ واضافة الى ذلك؛ فقد افاض جواد على اسرته هو ايضا من ينابيع فنه حينما راح يعزف على الجيتار الحانا من تأليف فنانين عالميين وبخاصة ما حفظه من موسيقا (الفلمنكو) المشهورة في جنوب اسبانيا.

في عام ١٩٤٧ أكملت نزيهة دراستها في الرسم وتخرجت في معهد الفنون الجميلة؛ واتيح لها ان تغادر الى فرنسا لاكمال تعليمها شأنها شأن بعض الذين سبقوها؛ كفائق حسن؛ وجواد سليم او كالذين زاملوها في تلك الفترة مثل جميل حمودي وحميد المحل واسماعيل الشيخلي... الخ؛ وبعد دراسة جادة ونجاح متفوق في فن الرسم؛ عادت الى بغداد عام ١٩٥١ لتندمج في التدريس؛ ولتتعرف بشكل مباشر على نشاطات التجمعات الفنية؛ كأصدقاء الفن؛ والرواد؛ والانطباعيين؛ و جماعة بغداد للفن الحديث؛ فتجد نفسها الاقرب فنيا وتراثيا الى التجمع الاخير الذي كان يقوده شقيقها المثقف المبدع جواد سليم؛ فشاركت بكل طاقاتها في مختلف المعارض التي اقامتها تلك المجموعة الفعالة النشطة.

اما على الصعيد الاسري فقد كانت قريبة جدا من جميع اشقائها في حياتهم العائلية والاجتماعية؛ ومن نماذجه هذه اللمحة الخاصة التي لمستها شخصيا: .

في جلسة فنية أدبية من عام ١٩٥٣ اهداني جواد سليم لوحة تخطيطية فريدة بعنوان (الرحيل عن الوطن) لتأخذ مكانها على غلاف مجلتي (الاسبوع) (١) حيث خصص العدد لمحنة اللاجئين الفلسطينيين؛ وهو ما تبرعنا بريعه لرابطة المناضل الجريح في فلسطين (٢)؛ وفي ذات الفترة؛ نال جواد الجائزة الاولى عربيا؛ والسادسة عالميا؛ وذلك عن عمله النحتي المشهور (السجين السياسي) من خلال المسابقة الدولية التي اقيمت في (تيت كلري) في لندن؛ فوجدتها فرصة ثمينة لكي افرد له في ذات العدد نصف صفحة عليها صورة ذلك الانجاز مع تفاصيل كافية عن المسابقة ونتائجها المشرفة للعراق. وازاء هذا دعانا جواد الى بيته لقضاء سهرة كريمة بتلك المناسبة؛ وما كدنا نأخذ اماكننا؛ حتى دخلت نزيهة وقد بان عليها التعب والارهاق من جراء انجازها لوحة للمعرض القادم؛ وان هي الا لحظات حتى تحولت نزيهة الى شخصية مرحة لطيفة النكتة نشطة الحركة؛ بل وتولت ايضا مهمات الضيافة الاساسية لوحدها لكي تفسح المجال لزوجة اخيها الفنانة لورنا لتعزف على الكمان مشاركة زوجها جوادفي عزفه على الجيتار.

وأكثر من ذلك هو ما لاحظته لاحقا اثناء ترددي وزوجتي المستمر على بيت نزار في المنصور فقد كنا قريبين بصداقتنا مع اسرته حيث وجدتها .ولاكثر من مرة .مندفعة وسباقة بحنان متميز في مشاركتها باعياد ميلاد شقيقها نزار؛ او زوجته (جنهلد) او اولاده (رشاد وسليم وريا وربا). وما رسائلها المتبادلة مع اشقائها؛ ألا صورة حقيقية عن مدى اصالة و تلازم هذه الاسرة النموذجية في علاقاتها الحميمية في السراء والضراء وعبر مختلف المناسبات (٣)

ان ارتباطها المتين باشقائها الذي اشرنا اليه؛ لايعنى بتاتا عدم استقلالية شخصيتها في اتخاذ القرارت الخاصة بمواقفها (كما تبادر للبعض)؛ والحادث الذي أروي واقعته هنا مثال واقعي على متانة قناعتها وبمعزل عن اي تأثير جانبي آخر: .

تقرر عقد اجتماع لبعض الفنانين التشكيليين في دار الراحل الفنان خالد الجادر يوم ١٩٥٥/١/١٧ لغرض الاتفاق على تأسيس (جمعية الفنانيين العراقيين) وقد لبى حضور هذا اللقاء التأريخي عدد من ابرز الوجوه الفنية وكان عددهم (١٦) فردا؛ كان من بينهم ا ثلاث سيدات هن؛ نزيهة سليم و زوجة محمود صبري؛و عالية القره غولي؛ وبعد نقاش وتداول وافق المجتمعون على التقدم الى وزارة الداخلية للموافقة على اجازة الجمعية.. وكان الملفت للنظر هو توقيع نزيهة سليم على المحضر لقناعتها بما جاء فيه ومن دون الرجوع الى اشقائها الفنانين (سعاد؛ جواد؛ نزار) كما توقع الآخرون (٤)

لقد كانت نزيهة سليم شديدة الالتزام بالمشاركة في مختلف معارض الرسم داخل العراق او خارجه ومع انها قضت زمنا طويلا في اوربا؛ الا انها بقيت نبعا صافيا من ينابيع العراق في الفكرة؛ والاسلوب؛ واللون؛ فلو نظرت الى لوحاتها التي امتلأ بها بيتها في الوزيرية وفاض على مئات المعارض؛ لوجدتها متفردة ا ليس في اختيارها للمرأة العراقية في لوحاتها وحسب؛ بل وفي مختلف مواضيع الطبيعة او المحلات البغدادية او الحياة الاسرية او الموروث الشعبي حيث اضفت على كثير من لوحاتها الوانا زاهية براقة نابعة من ذاتها وخزينها المتراكم؛ وان براعتها في كل هذه الاوجه يضاف اليها اجادتها المشهورة في رسم لوحات (البورتريت). ومنها تلك اللوحة الفريدة التي رسمتها لزوجتي عام ١٩٩٢ ووشحتها بتوقيعها.. والتي ما زلنا نحتفظ بها في صدرغرفة الجلوس فخرا واعتزازا.

كان آخر لقاء لي مع نزيهة سليم وانا اودع الوطن؛ في ذات البيت من حي الوزيرية؛.. والذي التقينا به كثيراكما أسلفت؛ كانت هذه الزيارة (الوداعية) مع صديقي الاقتصادي الأكاديمي الدكتور طارق العزاوي والذي كانت اسرته هو الآخر مجاورة لآل سليم في ذات الحي؛ ما كدنا ندخل البيت الغارق باللوحات المنجزة وتلك التي اجلت موعدها مع الفرشاة الى زمن مجهول؛ حتى التقيناها (مع شقيقها الفنان الكبير سعاد سليم)؛ وهي لاتستطيع ان تتحرك الا بصعوبة بالغة من كثرما عانت من اوصاب وامراض ومحن؛ في تلك اللحظة المؤلمة وانا انظر اليها وهي مهدمة متداعية: مرت على الذاكرة صورتها مع ست من زميلاتها (فراشات الخمسينات) وهن بملابسهن العصرية الملونة الزاهية لتأدية دورهن كتشريفات في حفلة البولو التي اقيمت برعاية الملك فيصل الثاني في بداية عام ١٩٥٧ والتي خصص ريعها لدعم جمعية الفنانين العراقيين.

نزيهة سليم
بريشتها

القفة

هاك دجلة ، وهاك القفة فيه . تلك القفة التي صنعت بعد الطوفان في مرفأ أور الكلدانيين، وهي اليوم كما كانت في زمن العباسيين في الأقل ، تصنع من الخوص ، وتطلى بالقار داخلاً وخارجاً . فلو عاد إلى هذا الوجود أحد نوتي بغداد القديمة لكان يهلل للقفة ، ويحمد الله أنها لا تزال على شكلها الأول ، وأن ألف سنة لم تغير شيئاً فيها . وقد يكون النوتي البغدادي الذي يحرك بجذافها اليوم من سلالة صياد الرشيد ، وقد يكون الجد كذلك لسلالة مقبلة من الصيادين تستمر ألف سنة أخرى . فيجيء رحالة القرن الحادي والثلاثين ، ويقف فوق دجلة على جسر معلق من حديد ، فيرى القفة ، ويعثر بعد ذلك على نسخة من هذا الكتاب ، فيستشهد مؤلفه على ألف سنة في الأقل من عمرها .

وما هذا كل ما في القفة فبينا صاحبها يجذف من حين إلى حين ، ليحفظ خط سيرها في مجرى النهر ، يبدو لك كنز آخر من الكنوز التي لا تمسها يد الفناء ، ولا تعبث بها يد التغيير . هناك ، على وجه دجلة ، في صباح يوم شمسه كريمة ، ترى اللؤلؤ في نقط الماء التي تتساقط من المجذاف ، وهو يرتفع فوق الموجة ، وترى حول الموجة ، وهو يغطس فيها ، ذوب اللجين وقد تخلله الذهب الوهاج .

فلو عاد إلى الوجود شاعر من شعراء نينوى ، أو غادة من غيد بابل ، أو كاهن من كهان أور لهلل – لهللوا كلهم – لهذه الشمس الشارقة ، المقيمة على عهدها ، الثابتة في خيرها ، النائرة على دجلة ، حتى حول مجذاف (القفاف) لؤلؤ الذكريات ، وذهب الآمال – الذكريات والآمال التي تنعشنا اليوم وتحيينا ، كما أنعشت وأحيت أهل أور ، وأبناء نينوى وبابل .

قفة ، كَفه

جاء في المصادر المسمارية الكلمة الأكدية (البابلية والآشورية) المضاهية لكلمة قفة العربية والدارجة (كَفه) بهيئة (قُفُو) (Quppu) ، ويبدو أن استعمالها في الأكدية استعمال قديم فقد وردت في أسطورة سرجون الأكدية الشبيهة بقصة موسى حيث وضعته أمه في قفة ورمته في النهر وانتشله الساقي (أكي) ١٦٩ (أنظر معجم CAD).